بحث تاريخي

أديرة قبطية في مصر
باسم القديس باخوم

الأستاذة الدكتورة/ شيرين صادق الجندي
أستاذ الآثار والفنون القبطية
ورئيس قسم الإرشاد السياحي بكلية الآداب – جامعة عين شمس

❁✚❁

القديس باخوم العظيم

وُلِد القديس باخوم/ باخوميوس في مدينة إسنا سنة ٢٩٢م، كما يعتقد البعض أنه وُلِد في مدينة الأقصر. واسم باخوم هو اسم قبطي **Ⲡⲁϧⲱⲙ** يعني "نسر". وعُرف القديس باخوم منذ صغره بكراهيته الشديدة للأصنام والأوثان. وعندما بلغ سن العشرين، تم تجنيده فى الجيش فى عصر الإمبراطور الروماني مكسيميانوس **Maximian** (c. 250 – c. 310)، والذي أرسله في كتيبة عسكرية لإخضاع والي الحبشة.

وعندما عاد من هذه المهمة، لم يرجع إلى بيته ولكن توجه إلى قرية صانسيت ليعيش فى معبد مهجور بها وليتتلمذ على يد كاهن علَّمه حياة النسك والزهد. كما قدَّمه هذا الكاهن إلى الأنبا صرابيون أسقف دندرة التابعة لإيبراشية قنا حيث تم تعميده. وتقابل باخوم فيما بعد مع الأنبا بلامون **Palamon** فى مغارته وتتلمذ على يديه قرابة سبع سنوات وألبسه إسكيم الرهبنة.

ويُعد القديس باخوم من أهم أعلام ورموز وقديسي الكنيسة القبطية حيث أسس حياة الشركة ***Koinonia*** ومبادئ الرهبنة الجماعية **the Cenobitic life** فى القرن الرابع الميلادى. كما سجَّل فى مؤلفاته تفاصيل وأُسس الرهبنة الباخومية باللغة القبطية باللهجة الصعيدية.

حياة الشركة

تمثَّلت الرهبنة قبل ظهور القديس باخوم في نظام الرهبنة شبه الجماعية الذي أسسه

القديس أنطونيوس العظيم في وادي عرابة بالقرب من هضبة القلاقي بالبحر الأحمر حيث كانت المسافات تفصل بين الرهبان الذين عاش كل منهم فى مغارة ليتعبَّد بمفرده أغلب الوقت، ثم كان جميع الرهبان يتقابلون معًا يوم الأحد لنيل الإفخارستيا وليمة المحبة. أما فى النظام الباخومي الجديد، استطاع القديس باخوم تجميع الرهبان ليعيشوا معًا طوال الوقت فى حياة الشركة الجديدة. فكانوا يتقابلون ويتعبَّدون ويتعلَّمون من القديس باخوم ومن بعضهم البعض ويساعدون بعضهم البعض. وكان الشباب يخدمون الآباء الشيوخ. كما كانت لكل فئة رهبانية حرفة أو صنعة معروفة ومميزة لها عن غيرها.

ونتيجة لتضاعف أعداد الرهبان فى ذلك الوقت، شيَّد القديس باخوم ما يقرب من عشرة أديرة قبطية فى مناطق مختلفة فى صعيد مصر. وكان لكل دير رئيس خاص به. وأصبح القديس باخوم مؤسِّس الرهبنة الجماعية وحياة الشركة فى العالم أجمع والرئيس الأعلى لكل الأديرة الباخومية التى بلغ عدد الرهبان بها ما يقرب من عشرين ألف راهب حينذاك.

وعندما انتشر وباء الطاعون فى الأديرة الباخومية، حرص القديس باخوم على التنقل بين هذه الأديرة لخدمة ورعاية الرهبان المرضى وبالأخص كبار السن منهم إلى أن أُصيب هو نفسه بنفس المرض. وقد تنيَّح هذا القديس العظيم فى يوم ٩ مايو ٣٤٨م وهو فى سن السادسة والخمسين بعدما عاش راهبًا قرابة خمسة وثلاثين عامًا. ويتم الاحتفال سنويًّا بعيد نياحته فى ١٤ من شهر بشنس الذي يُقابل الآن في التقويم الغريغوري ٢٢ مايو.

وفيما بعد، انتقلت تعاليم القديس باخوم إلى بلدان العالم المختلفة بواسطة أتباعه وتلاميذه. وقد نقل القديس باسيليوس الكبير تفاصيل الرهبنة الباخومية إلى آسيا الصغرى. وفى سنة ٤٠٤م، ترجم القديس إيرونيموس / جيروم **Saint Jerome** قوانين النظام الباخومي وأدخلها فى الأديرة الإيطالية، وهو ما فعله أيضًا بعد ذلك القديس ديونسيوس الصغير فى عام ٥٤٥م. ونشير كذلك إلى يوحنا كاسيان، الذى عكف على ترجمة سير الآباء الرهبان والقديس باخوم وحياة الشركة ونشرها فى فرنسا وغيرها من دول غرب أوروبا.

١- دير القديس باخوم (دير الشايب) بالأقصر

يُعتبَر هذا الدير الكبير من أهم الأديرة التى بناها القديس باخوم فى القرن الرابع الميلادي بالقرب من قرية البني التى يُعتَقد أنها شُيِّدت فوق تلال دير البنات المندثر

والذى ترأسته مريم شقيقة القديس باخوم. وفى شمال هذا الدير، توجد قرية المدامود **Medamud**[1]، وهى بالقرب من نجع صغير يعرف باسم نجع النصارى. كما توجد قرية منشأة العمَّاري فى جنوب هذا الدير وبالقرب من مطار الأقصر.

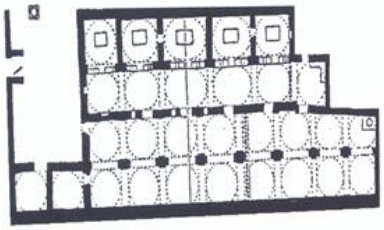

الشكل رقم ١ – ٢ منظر عام ومسقط أُفقي لدير القديس باخوم (دير الشايب) بالأقصر.
نقلًا عن الأنبا صموئيل. دليل الكنائس والأديرة في مصر، القاهرة ٢٠٠٢ ص ٢٠١

أهمية الدير

يُعرف الدير باسم القديس باخوميوس بالأقصر. وبعد نياحته، عُرف هذا الدير باسم دير الشايب اعتقادًا من سكان المكان فى الظهور المتكرر للقديس باخوم لزواره على هيئة شيخ كبير بلحية بيضاء. كما أن هذا الاسم يُميِّز دير القديس باخوم فى الأقصر عن ديره الموجود بحاجر إدفو بأسوان.

عمارة الدير

يحيط بهذا الدير سور كبير بداخله بعض المباني الخدمية وحديقة وكنيسة أثرية ترجع إلى القرن السابع عشر أو الثامن عشر الميلادي. وهي تحتوي على خمسة هياكل وزعت كلها فى صف واحد ويسبقها خورس مستعرض. وخُصِّص الهيكل الرئيسي لهذه الكنيسة للقديس باخوم. وإلى يمينه، يوجد مذبح القديسة مريم العذراء. كما خُصِّص المذبح الثالث لرئيس الملائكة ميخائيل. وكُرِّس المذبح الرابع للقديس الشهيد مار جرجس. ويُعرف المذبح الخامس باسم القديس مار بقطر ابن رومانوس. والكنيسة مغطاة بما يقرب من اثنتين وثلاثين قبة أثرية. وقد عُثِر فى حجاب الهيكل الحجري على منحوتات حجرية يزينها رموز مسيحية كالصلبان وبعض النصوص والتواريخ القديمة المدوَّنة باللغة القبطية وهي من بقايا الكنيسة الأقدم للدير. ولمعمودية هذه الكنيسة المقدسة طابع أثري، وهي مغطاة أيضًا بقبة يزخرفها صليب.

---

(١) الأنبا صمويل، *دليل الكنائس والأديرة فى مصر*، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ٢٠١.

ويُعتبَر حجر الزيت من أهم مقتنيات دير القديس باخوم بالأقصر. وهو كتلة حجرية صغيرة الحجم يصل وزنها إلى ما يقرب من ٧٠ كجم حيث كان يُستَخدم فى وضع زيت القنديل وكذلك زيت أبو غالمسيس. وبالدير، يوجد المزار المبارك للآباء المتنيحين. وهو بمثابة حجرة مربعة دُفِن بها بعض الآباء والأساقفة الذين تعاقبوا على كراسى أسقفية الأقصر وإسنا وأسوان مثل الأنبا ميخائيل، والأنبا متاؤس، والأب ميخائيل الحبشي، وغيرهم. وملحق بهذا الدير متحف به جرن قديم لمعمودية، وهون من الحجر الصوان، وبعض الأيقونات القديمة المكتشفة فيه حديثًا.

٢- دير القديس باخوم بحاجر إدفو بأسوان

شُيِّد هذا الدير فى سفح الجبل على مقربة من مدافن الأقباط وعلى بعد حوالي سبعة كيلومترات غرب إدفو. وأهم ما بالدير كنيسته الأثرية القديمة التى ترجع إلى القرن الثامن عشر – التاسع عشر الميلادى. وتتكون من أربعة هياكل بالإضافة إلى صحن به ثلاثة خوارس مفصولة بواسطة حوائط وأكتاف حجرية. ومدخل الكنيسة فى الركن الشمالي الغربي. وتوجد المعمودية فى الناحية الغربية من الكنيسة التى تعلوها مجموعة من القباب والقبوات المتناسقة فى توزيعها.

وتم تجديد دير القديس باخوم بحاجر إدفو بأسوان فى عصر الأنبا هدرا مطران أسوان ورئيس دير القديس باخوم بحاجر إدفو. وألحق بالدير كنيسة كبيرة باسم القديسة مريم العذراء، ومكتبة للرهبان، ومبانٍ خدمية، ومضيفة لاستقبال الآباء الأساقفة، ومضيفتان للزوار وللآباء الكهنة. وتم بناء برجَين (منارتَين) ارتفاع كل منهما ٣٥م. كما ازداد تشييد القلايات لا سيما بعد ازدياد عدد الرهبان بالدير.

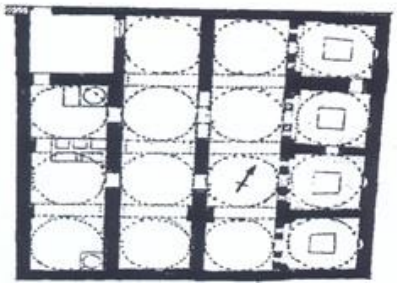

الشكل رقم ٣ – ٤ منظر عام ومسقط أفقي لدير القديس باخوم بحاجر ادفو بأسوان.
نقلًا عن الأنبا صموئيل. دليل الكنائس والأديرة في مصر، القاهرة ٢٠٠٢ ص ٢١١

وبمصر تتعدَّد الأديرة القبطية الأخرى التى عرفت باسم القديس باخوم غير أنها لا تُنسَب للقديس باخوم مؤسِّس حياة الشركة. بل حملت أسماء قديسين وشهداء آخرين بنفس الاسم. وفيما يلي بعض هذه الأديرة:

- **دير القديس باخوم بالصوامعة شرق أخميم**

يوجد هذا الدير فى قرية نجوع الصوامعة على حافة الأراضي الزراعية فى الناحية الشرقية من مركز أخميم فى محافظة سوهاج. ويتم الوصول إلى هذا الدير من سوهاج أو من أخميم عن طريق كوبري الدير الذي يعبر ترعة الفاروقية، ثم يتم الاتجاه شرقًا حتى الوصول إلى الدير. ووردت الإشارة إلى هذا الدير فى عدَّة مؤلفات لكثير من الرحَّالة وعلماء الآثار والباحثين الغربيين والمصريين[٢].

كما نسب بعض المؤرِّخين هذا الدير بالخطأ إلى القديس باخوم مؤسِّس حياة الشركة. وفى حقيقة الأمر، توجد إشارة تاريخية بأن أحدًا اسمه شنوده **Shenute** ابن الأرخن القبطي محب – وكان من قرية سفلاق أو سفرق – قد قام بدفن والده بالقرب من جسدي قديس آخر اسمه باخوم وأخته ضالوشام **Dalusham** اللذَين استشهدا فى عصر الإمبراطور الروماني دقلديانوس **Diocletian** (٢٨٤-٣٠٥م). كما كان شنوده من المؤمنين المتردِّدين على هذا الدير لطلب الشفاء ولنيل البركة.

وعلى العتبة العليا للباب الخارجي للدير نقوش باللغة المصرية القديمة من عصر الأسرة البطلمية. وكنيسة الدير هى المبنى الوحيد المتبقى من كل مبانيه الأصلية، وهى محتفظة بطابعها المعماري الأصلي الذى يتشابه مع كنيسة دير القديس شنودة بسوهاج (الدير

(2) Sieur Granger, *Relation du voyage fait en Égypte en l'année 1730,* Paris, 1745, 98; A.J. Butler, *the Ancient Coptic Churches of Egypt,* vol.2, Oxford, 1884, 8; S. Clarke, *Christian Antiquities in the Nile Valley, London*, 1912, 213, n°19; Otto Meinardus, *Christian Egypt, Ancient and Modern,* Cairo, 1965, 295; P. Grossmann, "Survey Arbeiten in Raum von Akhmim", *Archiv für Orient Forschung* 27 (1980), 304-306; C. Sicard, Oeuvres, (ed.) S. Sauneron & M. Martin, *Bibliothèque d'étude* 85, Cairo, 1982, vol.3, 38-39; S. Timm, *Das christlich-koptiche Ägypten in arabischer Zeit*, vol.2, Wiesbaden, 1984, 653-657; R.-G. Coquin, "Dayr Anba Bakhum (al-Sawamᶜah Sharq), History", *CoptEnc.*, (ed.) A.S. Atiya, vol.3, New York, 1991, 730a-731b; Shela Mc Nally, "Dayr Anba Bakhum (al-Sawamᶜah Sharq), Architecture", *CoptEnc.* (ed.) Aziz, S.A., vol.3, New York, 1991, 730a-731b.

الأبيض). فكان بها هيكل ثلاثي الحنيات، يسبقه الشكل البازيليكي المعتاد فى أغلب كنائس مصر. ومذبح الكنيسة يعلوه قبة خشبية بداخلها زخارف تتضمن أشكال قديسين وملائكة.

وتغيرت عمارة الكنيسة فيما بعد بحيث أصبحت أعرض وأقل طولًا. والبائكة الجنوبية هى أقدم أجزاء هذه الكنيسة التى يوجد بداخلها حجاب قديم وهيكل. ويعرف هذا الهيكل باسم هيكل الشهيد. وفى مواجهة المذبح طاقة، كما يعلوه قبة خشبية تزخرفها نقوش بديعة. ويرجع أقدم أجزاء الكنيسة إلى القرن السادس – السابع الميلادي.

ومن أهم رهبان هذا الدير في العصر الحديث، تجدر الإشارة إلى كل من البابا كيرلس الرابع أبي الإصلاح البطريرك رقم ١١٠ (١٨٥٣-١٨٦١م)، والأنبا كيرلس مطران البلينا (١٨٩٨-١٩٧٠) والأنبا مينا أسقف دير الأنبا صموئيل.

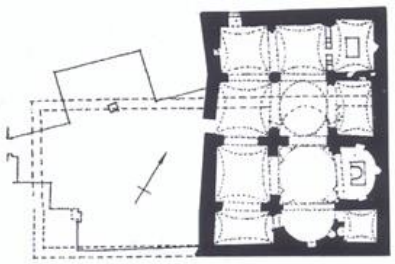

الشكل رقم ٥ – ٦ منظر عام ومسقط أُفقي لدير القديس باخوم بالصوامعة شرق أخميم.
نقلًا عن الأنبا صموئيل. دليل الكنائس والأديرة في مصر، القاهرة ٢٠٠٢ ص ١٨٢

● دير القديس باخوم بأبيدوس

فى القرن الثامن عشر، ذكر **C. Sicard** أنه رأى بقايا أثرية لدير يُعرَف باسم دير باخوميوس أو دير الأنبا باخوم فى جنوب الـ **Memnonion** وهو معبد جنائزي للملك سيتي الأول **Sethi** I . وفى عام ١٩١١، أشار **G. Lefebvre** إلى بقايا دير أثري فى هذا المكان يُعرَف باسم دير اليونانيين **Monastery of the Greeks** . كما ورد ذكر هذا الدير فى *الموسوعة القبطية* فى المقالة التى كتبها **M. Martin, S. J.** و **R. G. Coquin** فى عام ١٩٩١[٣]. وفيما عدا ذلك لم تصلنا معلومات أخرى عن هذا الدير.

(3) G. Lefebvre, *Égypte chrétienne*, IV, *ASAE* 11, (1911), 230-250; C. Sicard, Oeuvres, (ed.) S. Sauneron & M. Martin, *Bibliothèque d'étude* 85, Cairo, 1982, vol.3, 68; R.-G. Coquin & S.J. M. Martin, "Dayr Anba Bakhum (Abydos)", *CoptEnc*., (ed.) A.S. Atiya, vol.3, New York, 1991, 729a.

● **دير القديس باخوم ببرجانوس**

شُيِّد هذا الدير فى قرية برجانوس **Barjanus** التى كتب عنها **E. Renaudot** باسم **Birhowas** والمعروفة باسم **Taha al-Aᶜmidah**. ولا توجد أدلة علمية أخرى تدل على وجود هذا الدير فى هذا المكان أو على أنه يُنسَب للقديس باخوم(٤). ولم يشر إلى وجود هذا الدير من المؤرِّخين غير أبو صالح الأرماني. كما كتب عنه أيضًا فى القرن العشرين محمد رمزي في العدد الثالث من المجلد الثاني من مؤلفه *"القاموس الجغرافي للبلاد المصرية"* ، القاهرة، ص ٢٣٦.

الخاتمة

مما سبق، يتضح وجود عدد لا بأس به من الأديرة القبطية فى مدن مصر وقراها ونجوعها التي تحمل اسم القديس باخوم ولكنها لم تُشيَّد كلها للقديس باخوم مؤسِّس الرهبنة الجماعية فى مصر والعالم أجمع. وتختلف كل هذه الأديرة فى مبانيها وزخارفها وتاريخ بنائها. ولكنها تظل خير شاهد على بعض تفاصيل حياة أجيال مختلفة من النساك والآباء الرهبان التى عاشت حياة الزهد والنسك والإيمان القوي والعبادة الحقيقية، والتى ساعدت تعاليمهم وإصلاحاتهم على تعميق جذور المسيحية والرهبنة القبطية فى المجتمع المصري.

وتتميز الأديرة الباخومية بتنوع الطابع الحضاري والتاريخي والأثري والفني وروائع العمارة القبطية بتفاصيلها الجميلة التى تعكس كفاح القديس باخوم العظيم وجهاده ومثابرته من أجل تأسيس النظام الباخومي فى العصور المبكرة لتنظيم الحياة داخل الأديرة القبطية على أساس من الشفافية والعدالة والمحبة حيث توافد كثير من الزائرين على أديرته العامرة لنيل شفاعته وبركته وللتعرف على القيمة التراثية الكبيرة لهذه المنشآت الدينية الأثرية الهامة وتاريخ مؤسسها ورؤسائها الآجلاء على مر العصور التاريخية المختلفة.

---

(4) E. Renaudot, *Historia Patriarcharum Alexandrinorum*, Paris, 1713, 310; E. Amélineau, *Monuments pour server à l'histoire d'Égypte chrétienne*, *MIFAO* 4, Paris, 1886-1888; L. Leroy, *Les miracles de St. Ptolémée*, *PO* 5, Paris, 1910, 779-806; R.-G. Coquin & S.J. M. Martin, "Dayr Anba Bakhum", *CoptEnc*., (ed.) A.S. Atiya, vol.3, New York, 1991, 729b.